لعبت الصحراء الإفريقية الكبرى في تاريخ إفريقيا الغربية ما لم يلعبه المحيط الأطلسي من الأدوار الحضارية الهامة، فقد كانت مسارب الصحراء إلى غربي إفريقيا خلال العصر الوسيط بمثابة مسالك تعبر من خلالها حضارة البحر الأبيض المتوسط والحضارة الإسلامية بعد ذلك إلى إفريقيا جنوب الصحراء عموماً وإفريقيا الغربية بصورة أخص، وقد استمر هذا التوارد للحضارة إلى غربي إفريقيا خلال فترة طويلة من العصور الحديثة أيضا، وطوال هذه الفترة كانت مياه المحيط الأطلسي لا تأتي لغرب إفريقيا بشيء من الحضارة.

والحقيقة أن قبائل السودان الغربي قد اتصلت منذ القديم مع سكان الشمال الإفريقي شمال الصحراء، ولم تكن الصحراء في يوم من الأيام تشكّل عائقاً دون الاتصال الحضاري المثمر بينهما، وكانت الأسس الأولى المباشرة لهذا الاتصال هي التجارة وتبادل المنتوجات والبضائع وعن طريقها انتقلت المؤثرات الحضارية بشكل واسع وكانت التجارة بهده الصورة تخدم مصالح الطرفين وتشكل عاملاً للتطور كان كافياً ومهماً لكل منهما.

ويعد جوهر العلاقة بين سكان الشمال الإفريقي وسكان جنوب الصحراء اقتصادياً بالدرجة الأولى، حيث أن العامل الاقتصادي والتجاري والسعي وراء الكسب المادي كان السبب الرئيسي الذي جعل التجار يجوبون الصحراء ويتحملون مشاق واختيار الطرق الأنسب لقوافلهم، حيث أسهم هؤلاء التجار في بناء علاقات مع أمثالهم من التجار جنوب الصحراء بالدرجة الأولى والذين تربطهم بهم علاقة تبادل السلع، كما أقام التجار علاقات مع القاطنين في الواحات التي تمر بها الطرق التجارية فنشأت مراكز لاستقبال القوافل فيما بعد.

وبما أن أولئك التجار كانوا في غالبيتهم من العرب المسلمين بعد الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا كانوا من الذين يمارسون شعائرهم الإسلامية ويطبقون القوانين الإسلامية في المعاملات المالية وغيرها من النشاطات الأخرى أينما رحلوا، وأدت مزاولة التجار فروض الإسلام من صلاة وصوم وصدقة إلى إثارة انتباه الإفريقيين الذين تعرفوا للمرة الأولى على هذا الدين الجديد فتأثروا بهم تدريجيا، ثم ما لبث أن اعتنق الكثير منهم الإسلام وفضلوا الدخول فيه طوعاً واختياراً[1]، يُضاف إلى ذلك، أن كل مسلم مكلف بنص الدين بمهمة نشر الدين والدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة ثم خوض المعارك في سبيل الدفاع عنه ولكننا لا نعرف عن معارك قامت لنشر الدين في المنطقة إلا في عهد المرابطين بالمغرب.

كما كانت المسافة التي يقطعها التجار بين الشمال الأفريقي وجنوبها الغربي شاسعة والمدة التي يقطعونها في الرحلة طويلة، الأمر الذي أدى بالكثير من التجار إلى الزواج بزوجات من المناطق التي يتعاملون معها ويستقرون فيها، وأدى هذا بدوره إلى إظهار جيل مختلط كسب دينا وثقافة جديدة بالإضافة إلى ثقافته مما ساعد في تسارع انتشار الإسلام.

كما جلب التجار معهم من الشمال الأفريقي إلى الجانب الآخر من غرب إفريقيا ووسطها المعرفة بشتى أنواعها وحضارة العالم في العالم الإسلامي بمفاهيمه الدينية، والأنماط الجديدة من التعليم والفن المعماري والمحاصيل والصناعات والمهارات الجديدة، يقول البكري[2] في تحقيقه عن انتشار الإسلام والثقافة الإسلامية « أن ملك بلاد التكرور(الستغال) المدعو "ورجاني بن دايسن" قد اعتنق الإسلام، ومن الواضح أن إسلام هذا الملك قد جعل أتباعه يعتنقون الإسلام وأتبعهم الكثيرون».

---

[1] - توماس أرنولد، الدعوة للإسلام، تر.حسن إبراهيم، القاهرة:ب.ن، 1968م، ص.ص(282-281).

[2] - أبو عبيد البكري، المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب، تح دي سيلان، الجزائر: 1957م، ص.ص(161-148).